أنطاكيا في تفاسير آبائيّة سريانيّة

الخوري نعمةالله الخوري

كانت أنطاكيا، في ايام الرسل، نقطة انطلاق البشارة الى الأمم الوثنية، فتفوّقت بنشاطها الرسولي على مدينة اورشليم التي كانت متقوقعة على ذاتها في بداية الكرازة المسيحية. تأسّست في أنطاكيا مدرسة شهيرة خرّجت المفكّرين اللاهوتيين الذين عرضوا لاهوت التجسد وشرحوا الكتب المقدسة بطريقة تختلف عن العادة المتّبعة في مدرسة الاسكندرية. ان المنافسة بين مدرسة أنطاكيا ومدرسة الاسكندرية افرزت مجادلات ونقاشات حادة حول الامور المتنازع عليها، وقد دامت هذه الأجواء طوال الفترة الممتدة بين القرن الرابع والقرن السابع، فانتشرت تعاليم مدرسة أنطاكيا بشكل واسع في الكنيسة السريانية التي كانت تمتلك ترجمات للكتب التي دوّنها الآباء باليونانية.

سنركّز اهتمامنا في دراستنا، «أنطاكيا في تفاسير آبائية سريانية»، على تعليم ثيودورس اسقف المصيصة[1] (٣٥٠–٤٢٨)، لأن كتاباته تعكس لاهوت مدرسة أنطاكيا، وسنهمل دراسة التفاسير الآبائية الأخرى، لأننا لا نستطيع ان نستعرض تعاليم هؤلاء الآباء في هذه الدراسة الموجزة. دوّن ثيودورس كتبه باليونانية، ولكنها فُقدت لأن المونوفيزيين اتلفوها بعد مجمع القسطنطينية الثاني (٥٥٣)، فاصبح من الصعب التعرّف على تعليم ثيودورس من خلال كتاباته اليونانية؛ ان كتب ثيودورس المترجمة الى السريانية ستساعد العلماء على فهم دقيق لتعليمه، وهذا ما دفعنا الى اختيار تعليم اسقف المصيصة في دراستنا التي تهتمّ بتعليم كنيسة أنطاكيا في التفاسير السريانية.

أوّلاً: ثيودورس المصيصي والكنيسة السريانية

وُلد ثيودورس في أنطاكيا حوالى العام ٣٥٠ وتابع دراسته فيها على يد ديودورس الذي سيصبح اسقفاً على مدينة طرسوس. كان نتاج ثيودورس الفكري غزيراً في بداية حياته الرعوية، ولم تمنعه سيامته الأسقفية عام ٣٩٢ من متابعة نشاطه الكتابي، فترك للكنيسة عدداً وافراً من الكتب التي تشرح الكتب المقدسة وتعالج مواضيع لاهوتية متنوعة.

اصبح وجه ثيودورس اللامع معروفاً في المناطق المجاورة ولا عجب في ان نرى الأرمن يترجمون كتابات ثيودورس وكتابات معلمه ديودورس. اسرع المترجمون في كنيسة الإمبراطورية الفارسية (التي تُسمّى بتسمية مغلوطة: الكنيسة النسطورية) الى نقل كتب ثيودورس من اليونانية الى السريانية وكان لا يزال ثيودورس على قيد الحياة. بعد وفاة اسقف المصيصة، كانت الكنيسة السريانية تكرّمه وكان يُعتبر عندهم بمنزلة قديس وقد لقّبه السريان: «مفسّر الكتب الإلهية».

ثانياً: الكنيسة السريانية تتبنّى تعاليم مدرسة أنطاكيا

مات ثيودورس عام ٤٢٨ في نفس السنة التي عُيّن فيها نسطور (المولود في أنطاكيا) بطريركاً على الاسكندرية، وقد دانه مجمع افسس عام ٤٣١ نسطور لأنه لم يعترف بلقب «والدة الله» لمريم

١– R. Devresse, *Essai sur Théodore de Mopsueste* (Studi et Testi 141; Città del Vaticano, 1948).

العذراء. في هذه الفترة كان الصراع على اشده بين مدرسة الاسكندرية التي تعلّم ان المسيح له طبيعة واحدة (المونوفيزية) وبين مدرسة أنطاكيا التي تعترف بوجود طبيعتين في المسيح (الديوفيزية): طبيعة الهية وطبيعة انسانية.

بدأ انصار المونوفيزية يتهجّمون على ثيودورس بعد وفاته لأنهم اعتبروا انه «اب النسطورية»، فقد ذكر بعض المؤرّخين ان نسطور عرّج على المصيصة وزار اسقفها العجوز قبل ذهابه للجلوس على كرسي القسطنطينية. وبالفعل امر ربولا، اسقف الرها (+ ٤٣٥) بحرق كتب ثيودورس، ولكنّ المونوفيزيين لم يستطيعوا إدانة ثيودورس لا في مجمع افسس (٤٣١) ولا في مجمع خلقيدونية (٤٥٠)، مع العلم ان آباء مجمع خلقيدونية استمعوا الى رسالة هيبا الرهاوي التي تُليت في المجمع والتي تكرّم ثيودورس المصيصي. من الواضح ان اللاهوت الانطاكي سيطر في المجمع الخلقيدوني، لأن مدرسة أنطاكيا هي التي دافعت عن الطبيعة الإلهية والطبيعة البشرية في المسيح، وذلك تحت تأثير تعاليم ثيودورس ومعلمه ديودورس.

ظلّ خصوم ثيودورس فترة طويلة من الزمن يحاولون ادانته فلم يستطيعوا، ولكنهم انتظروا مجمع القسطنينية الثاني الذي انعقد عام ٥٥٣ (اي بعد وفاة ثيودورس بمئة وخمس وعشرين سنة)، فتمكنوا من ادانة الرؤوس (او الفصول) الثلاثة: ثيودورس المصيصي، وثيودوريتس القورشي، وهيبا الرهاوي؛ بعد انعقاد هذا المجمع أُتلفت جميع كتب ثيودورس المدوّنة باليونانية بشكل منظّم وفُقدت معظم كتاباته.

ظلّت بعض كتابات ثيودورس مفقودة منذ ذلك الحين حتى اكتُشفت بعض كتبه حديثا؛ وبالفعل اكتشف المطران خيّاط عام ١٨٦٨ الترجمة السريانية لكتاب ثيودورس المفقود: «شرح انجيل يوحنا» في دير القديس جرجس شمالي الموصل[٢]؛ وفي العام ١٩٠٩ اكتشف اداي شير كتاب «التجسد»، وهو من اهم كتب ثيودورس، ولكنّ هذا العالم قُتل في الحرب العالمية الأولى وفُقد الكتاب المذكور؛ كذلك اكتشف العالم السرياني افرام الأول برصوم بطريرك السريان الارثوذكس عام ١٩٣١ «العظات التعليمية»، وقد ترجمت هذه العظات من السريانية الى الفرنسية[٣].

ثالثاً: اللاهوت الانطاكي في كتابات ثيودورس

نجد بعض المقاطع اليونانية من مؤلفات ثيودورس منثورة هنا وهناك عند بعض الكتّاب الذين استشهدوا به، وخاصة عند خصومه الذين كانوا يوردون مقطعاً مستلاً من كتبه ويتهجمون عليه. ولكن يجب ان نكون حذرين عند قراءة هذه المقاطع لأن خصوم اسقف المصيصة شوّهوا تعاليمه ليتمكنوا من النيل منه بسهولة، خاصة ان مؤلّفاته كانت قد اتلفت. غير ان كتابات ثيودورس المترجمة الى السريانية ستساعد الشراح على معرفة دقيقة لتعليمه قبل ان شوّهه خصومه.

كانت الجدالات اللاهوتية تتمحور حول شخصية يسوع المسيح ابن الله الذي تجسد وصار انساناً لأجل خلاص

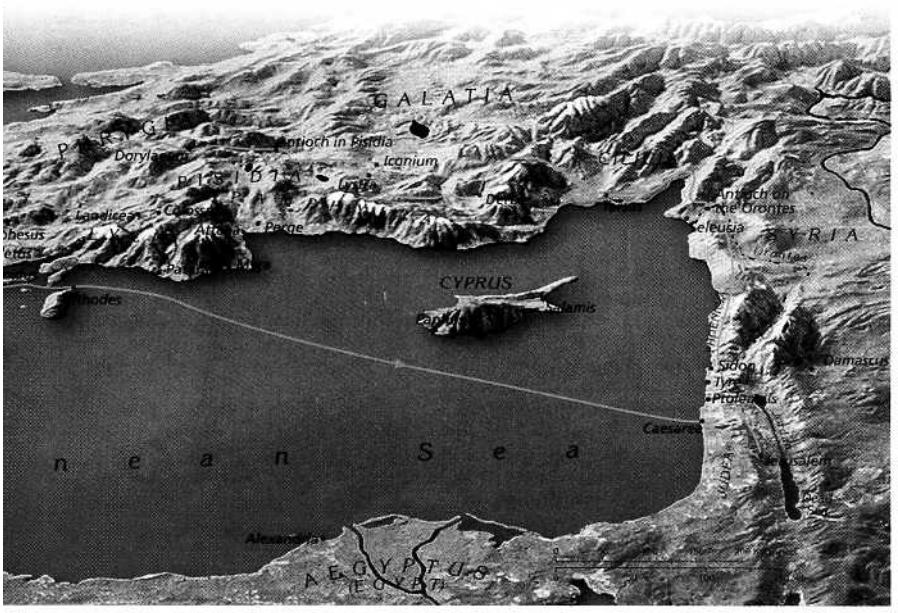

٢- J. M. VOSTE, *Theodori Mopsuesteni commentaries in evangelium Johannis apostolic* (CSCO 125-126; Louvain, 1940).

٣- R. TONNEAU, *Les homélies catéchétiques de Théodore de Mopsueste* (Studi et Testi 145; Città del Vaticano, 1949).

البشر؛ في اواسط القرن الرابع، حاول الهراطقة، الذين تأثروا بأريوس، تشويه الطبيعة البشرية للمخلص، واعتبروا ان جسد المسيح كان آلة بسيطة غير فاعلة يحرّكها الكلمة الإلهي. دحض ثيودورس تعاليم هؤلاء الهراطقة وآمن بوجود طبيعة بشرية كاملة وحسية وفاعلة في يسوع؛ لم يكن ظهور يسوع المسيح بين البشر غامضاً وغريباً على مثال ظهورات الله لأنبياء العهد القديم، بل كان وجود المخلص بيننا حسياً وملموساً فهو ابن داود ولكنه في الوقت عينه ابن الله.

آمن ثيودورس بوجود طبيعتين متميّزتين في يسوع المسيح المخلص واستنتج انه يمكننا ان نميّز في الأخبار الإنجيلية بين الابن الكامل والتام للّه الذي هو ابن الله بالطبيعة، وبين الابن الكامل لداود الذي اصبح ابن الله بالنعمة. بالرغم من ان ثيودورس ميّز بين الطبيعة الإلهية والطبيعة البشرية ليسوع، لكنه اراد التشديد على الوحدة بين الطبيعتين، وقد وصل الى هذا الهدف انطلاقاً من الاستشهاد بتعليم بولس في رسالته الى اهل فيلبي حيث يقول: «الذي هو صورة الله أخذ صورة العبد» (فل ٢: ٦). الله الكلمة هو الآخذ والانسان هو مأخوذ، ولكن يوجد اتحاد وثيق بين الكلمة الآخذ والانسان المأخوذ؛ يقول ثيودورس في هذا الخصوص[٤]: «وهكذا تعلّمنا الكتب المقدسة الاختلاف بين الطبيعتين بحيث يتوجّب علينا بالضرورة ان نعرف مَن هو الآخذ ومَن هو المأخوذ. فالذي يأخذ هو الطبيعة الإلهية التي من اجلنا صنعت كل شيء. والطبيعة البشرية هي التي أُخِذَت من اجلنا كلنا بواسطة من هو علة كل شيء. وهو في التحام لا يُدرك ولا يُحل الى الأزل... وتعلّمنا هذا الالتحام ليس فقط في ما تقوله لنا عن كل من هاتين الطبيعتين، بل حين نقول عن الواحد ما يعود الى كل من الطبيعتين. فيجب ان نحافظ على معرفة هذا الالتحام الذي لا ينفصل... فليس تمايز الطبيعتين هو الذي يبطل الالتحام الكامل، ولا هذا الالتحام الكامل يبطل تمايز الطبيعتين. فيسوع المسيح ابن الله الذي صار انساناً هو اقنوم واحد وطبيعتان».

بالرغم من وجود طبيعتين متميّزتين، الطبيعة الالهية والطبيعة الانسانية، فإن هاتين الطبيعتين هما متحدتان وتكوّنان شخصاً واحداً؛ الطبيعة الإلهية (الآخِذ) والطبيعة البشرية (المأخوذ) تتبادلان الصفات لأنهما تقعان في الشخص الواحد.

خاتمة

قدّمنا عرضاً مقتضباً عن تعليم ثيودورس حول تجسّد الرب يسوع، غير ان متابعة دراسة تعاليم ثيودورس اسقف المصيصة تدفعنا الى العودة الى كتاباته الوافرة والمحفوظة في تراث الكنيسة السريانية. نجد لائحتين تتضمّنان اسماء الكتب العديدة التي ألّفها ثيودورس، وهاتان اللائحتان هما محفوظتان في مجموعتين سريانيّتين: لائحة التاريخ السعردي[٥] التي دوّنت في القرن الثالث عشر ولائحة عبد يشوع الصوباوي[٦] التي دُوّنت في القرن الرابع عشر. ان الاحتفاظ بكتب اسقف المصيصة في الكنيسة السريانية هو دليل واضح على المنزلة الرفيعة التي كان يحتلها عند المؤمنين فيها. دافع هذا الأسقف عن الايمان وعرض لاهوت التجسّد، فكان المُمثّل الحقيقي للاهوت مدرسة انطاكية؛ ثمّ مات في سلام مع الكنيسة، لكنّ المسألة النسطورية التي واجهت الكنيسة بعد وفاته كانت السبب في انقضاض خصومه عليه، مع العلم ان كتاباته هي سابقة لتعاليم نسطور. ان الدراسة الدقيقة لتعاليم ثيودورس، انطلاقاً من كتاباته المحفوظة بالسريانية، ستفتح الطريق امام إعادة الاعتبار لهذا الوجه اللامع الذي ظلمه خصومه بعد وفاته، لكنّه ظلّ مكرّماً في الكنيسة السريانية، فكان يُعتبر بمقام قديس.

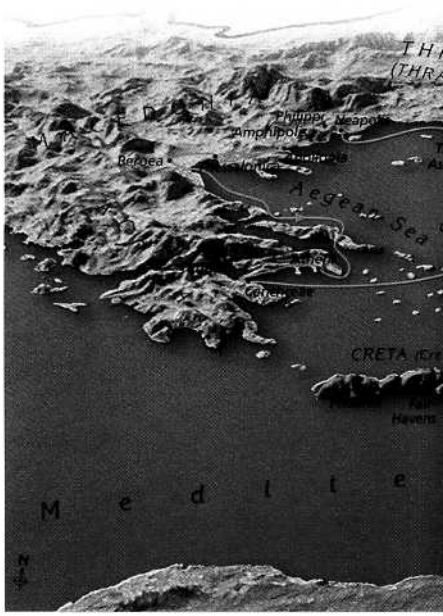

موقع أنطاكيا مميّز بالنسبة إلى انتشار المسيحيّة عامّة، وتحرّك بولس الرسول خاصّة.

٤- راجع: بولس الفغالي، ثيودورس اسقف المصيصة ومفسّر الكتب الإلهية، دار المشرق، بيروت ١٩٩٣، ص ١٢١.

٥- Mgr. Dib, "Chronique de Séert", dans *PO*, t. v, p. 289-291.

٦- J.- S. Assemani, *Biblioteca Orientalis*, t. III a, p. 30 sq.